

الدكتور: عبد الخليل قريان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

ندوة بعنوان: " التراث في زمن الأوبئة" من تنظيم مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية بجامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري يوم 16 رمضان 1442هـ الموافق 28 أبريل 2021 م

عنوان المداخلة:

الوباء الجارف وتداعياته عند ابن خلدون مناقشة وتقييم

مقدمة:

تعرض ابن خلدون للحديث عن الوباء في محطات مختلفة من كتابه العبر¹ غير أنه خص الوباء العام أو الجارف كما سماه 749-750هـ / 1348-1349م بتركيز خاص وجعله سببا في تراجع العمران وخراب المدن وغروب الدول، وحمّله التراجع الذي لحق بمنطقة المغرب والمشرق على السواء مع الاخذ بعين الاعتبار نسبة العمران في كل منهما.

إن هذا النص كان محل اهتمام المؤرخين والباحثين المعاصرين الذين تبنا موقف ابن خلدون ونتائجه التي قررها في هذا النص وتعاملوا مع الوباء على أنه كان من الاسباب الفاصلة في تردي الحضارة في بلاد الغرب الاسلامي وتهوي الدول²، ولا شك أن تبني هذه الرؤية التي صدرت عن

¹ ابن خلدون: العبر، ج1 ص 42-43، 376، ج7، ص، 515، 523، 525، 532.

² معظم الذين أرخوا لبلاد المغرب الاسلامي الوسيط تحدثوا عن أثر الوباء في التراجع الحضاري اعتمادا على نص ابن خلدون، منهم، السلوي الناصري: الاستقصا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م، ج2، ص 69-70. كنون عبد الله: النبوغ المغربي ص 178.

محمد عبد الله عنان: ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، ص 22. عبد الكريم الفيلاي في كتابه التاريخ السياسي للمغرب الكبير، ج ص، الجابري في كتابه العصبية والدولة ص 19-22،... إلى واسيني لعرج في ترجمته الحالية لرواية الطاعون لألبير كامو.

محمد عبد الله عنان: مصر الاسلامية وتاريخ الخطط، في الفصل الثاني (الشدة العظمى والفناء الكبير) ص 88 - ويذكر فيه مجموعة الطواعين التي حلت بمصر وغيرها وشدة ما كان فيها من الفناء ثم في ص 90 يعرض للوباء العام. مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الواحد وافي ج1، ص 46 من مقدمة التحقيق.

المقريزي: الخطط ج1، ص 339؟

انظر عن الوباء، ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص 527 - 531.

شخصية علمية فذة كان ولا يزال حولها الاجماع بأنها طفرة في الذكاء والتتظير، قد يصرف الباحثين والمؤرخين عن تلمس بقية الاسباب العميقة التي كانت وراء هذا التراجع الحضاري خاصة في المغرب الاسلامي موطن ابن خلدون الذي كان نقطة الرصد والملاحظة وما طرحه من تحاليل ونتائج. والإشكال المطروح ينصب حول مدى دقة النتائج التي وصل إليها حول آثار وتداعيات الوباء الجارف، ، وهل كانت نتائج الوباء متطابقة مع واقع الحال كما قررها ابن خلدون أم أن هناك مبالغة في تقدير نتائج الوباء.

أولاً: سياق نص ابن خلدون عن الوباء:

النص الذي أورده ابن خلدون حول الوباء ونتائجه جاء في مقدمة المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها³، وفي سياق تأكيده على مواصلة نهج المؤرخين وعلى رأسهم المسعودي في مروجه وبدرجة أقل البكري في المسالك والممالك، الذين تميزوا فيما أرخوه بالرؤية العامة والشاملة في رصد حركة التغيير الاجتماعي للدول وأحوالها فشرحوا أحوال الأمم والآفاق والأجيال والأعصار، وذكروا دولهم وممالكهم وشعوبهم ونحلهم ومذاهبهم وعوائدهم ووصفوا الاوطان والجبال والبحار، والمسالك .

كما جاء هذا النص في معرض تنبيهه إلى الفرق بين التاريخ السردى الخاص بعصر أو جيل، وبين التاريخ الشامل الذي يروم الحصول على المقاصد الأساسية والوصول إلى دراسة الاحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار.

ويشير إلى أن عملية الرصد واستخلاص الحالات العامة في التاريخ إنما تحتاج إلى امتداد الزمن حتى تتبين طبيعة التغيرات في حركة التاريخ وتتوضح معالمها، وقد لاحظ ابن خلدون أن المسعودي استطاع ان يحقق طرفا من هذه الرؤية التي كانت في زمانه مشفوعة بالتحولات الاجتماعية، بينما في عصر البكري لم تكن ثمة أحداث كبيرة غيرت مجرى التاريخ او احدثت فيه أنساقا جديدة لافتة يمكن ملاحظتها كما كانت زمن المسعودي، وفي هذا السياق يؤكد ابن خلدون أن رؤيته التاريخية العامة تأتي في اطار استمرارية هذا النهج الذي يدرس الظواهر العامة،

واختيار ابن خلدون لهذا النص كنموذج يشرح من خلاله كيفية النظر إلى الاحوال العامة والظواهر التي تترك في التاريخ بصمتها الواضحة، مما يؤكد أن هذا النص اختير بعناية من قبل ابن خلدون نظر لخصوصية الوباء ووقعه الكبير في نفسيته حتى بدت له أحوال المجتمع المغاربي والعالمى

³ (ص 42 من مجموع المقدمة 851 صفحة، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر بيروت لبنان، 1421هـ/ 2001م)

وكانها انقلبت رأساً على عقب، أي أن هذه الرؤية مقصودة مؤكدة حسب ابن خلدون الذي طرحها في موضع التمثيل متجاوزاً ظواهر أخرى غيرها.

ثانياً: مضمون النص وقاعدته.

فجاء هذا النص ملفتاً للانتباه إلى التحولات التي طرأت على بلاد المغرب الإسلامي وتحليلها

فيقول :

" وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القِدَم بما طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لمُلكهم، هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من **الطاعون الجارف** الذي تَحَيَّفَ الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلَّص من ظلالها، وقل من حدِّها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودُرست السُّبُلُ والمعالم، وخالَّت الديارُ والمنازلُ، وضَعُفَتِ الدُولُ والقبائلُ، وتبدَّلَ الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها"⁴. ونضيف له النص الذي يقول فيه: " ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه"⁵

ونلخص تداعيات الوباء حسب ابن خلدون في النقاط التالية:

- تردي الدول وتراجع الحضارة:
- كثرة الموت الذي أفنى أجيالاً بكاملها.
- أضعف الدول والقبائل وتداعت إلى التلاشي.
- محى معالم العمران والحضارة بانتقاص البشر.
- أرسى الخمول والانقباض في الكون.

⁴ ابن خلدون: العبر ، ج1، ص 42-43.

⁵ ابن خلدون العبر، ج7، ص 515.

-ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن ابن خلدون يرى أن الوباء يأتي في نهاية الدول كما أشار إلى ذلك في موطن آخر بقوله: "إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول..."⁶ ثم عزا سبب الموتان إلى كثرة المجاعات والفتن واختلال الدولة "فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء"⁷.

وقارئ هذا النص يخرج بانطباع عام أن الوباء كان له مفعول تدميري على البشرية شرقا وغربا وأن الدول تتساقط الواحدة تلو الأخرى، وأن المدن ومعالم الحضارة خربت بعد خلوها من البشر، والفاء حل بالكون.

ويبدو أن ابن خلدون توصل إلى هذه القناعة لأربعة أسباب رئيسية:

1- انتشار الوباء على أقاليم واسعة من العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بل كاد أن يكتسح العالم كله من حدود الصين (كبؤرة أولى) إلى القسطنطينية وروما إلى أوروبا فالأندلس والمغرب. ومن إثيوبيا على مصر ثم افريقية والمغرب.

2- استمراره لمدة طويلة نسبيا حيث ظهر بين عامي (حوالي سنة من صفر 749هـ إلى محرم 750 على تفاوت بين الاقطار من الشرق نحو الغرب) 749-750هـ/1348م-1349م.

3- عدد الضحايا الكبير الذين قضوا فيه.

4- تواتر الأخبار بخطورته والهلع الذي انتاب الناس مشرقا ومغربا⁸.

وقد وصفه المؤرخون من معاصريه وغيرهم بأوصاف تُجمع كلها على فداحة آثاره على المستوى البشري، فقد نعته أخوه يحيى بن خلدون بالطاعون الأكبر⁽⁹⁾؛ وسماه لسان الدين بن الخطيب بالطاعون العام⁽¹⁰⁾؛ وقال عنه النباهي (توفي أواخر القرن الثامن الهجري) بأنه "الطاعون الأعظم"⁽¹¹⁾؛ ووصمه ابن قنفذ القسنطيني بأنه "الوباء الأول العام في الأرض"⁽¹²⁾؛ وذكره الحسيني تلميذ الذهبي (748هـ) الذي

⁶ ابن خلدون: العبر ، ج1، ص376.

⁷ ابن خلدون: العبر ، ج1، ص376.

⁸ يذكر ابن ابي دينار في المونس مجموعة من الطواعين التي ضربت تونس منها وباء سنة 873هـ/ انظر ص 149، قال فيه بأن عدد الموتى بلغ فيه 14000 اربعة عشر الفا يوميا، وان عدد الذين قضوا فيه 400000 اربعمائة الف مسجل دون من لم يتم تسجيلهم نحو المائة الف 100000.

⁽⁹⁾ يحيى بن خلدون: البغية، ج1، ص 119.

⁽¹⁰⁾ ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص 9.

⁽¹¹⁾ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص 165-166.

⁽¹²⁾ بن قنفذ: كتاب الوفيات، ص 354.

ذيل كتاب العبر بأنه "الطاعون العام بأقطار البلدان"⁽¹³⁾؛ وقال عنه المقرئ بأنه "الوباء الذي لم يعهد في الإسلام مثله"¹⁴، ونفس الوصف نقله عنه ابن تغري بردي¹⁵، ووصفه ابن قاضي شهبة في تاريخه بأنه "الطاعون العظيم الذي عمَّ المشارق والمغرب"¹⁶، وجاء عن ابن حجر (ت 852هـ) قوله "ولم يعهد نظيره فيما مضى"¹⁷، وقال فيه ابن رجب الحنبلي بأنه "الطاعون العام الذي لم يسمع بمثله"⁽¹⁸⁾. وكتب عنه ابن إياس بأنه: "لم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطواعين المشهورة في الإسلام"¹⁹، وتواترت تسميته في أوروبا بالطاعون الأسود⁽²⁰⁾.

- يمكننا أن ننظر إلى نص ابن خلدون حول الوباء في مستويات ثلاث:
- المستوى الأول: التاريخي الذي يتحدث عن الأحداث الواقعة.
- المستوى الثاني: رصده للتحويلات والتطورات التاريخية وتحليل مساراتها.
- المستوى الثالث: تحديد الخلفية التي ينطلق منها كمحلل ومراقب.

ومن الضروري الإشارة إلى أن المشرق والمغرب كانت تجتاحه الطواعين دوريا كل 15 أو 20 سنة وكانت تبيد آلاف البشر في المدن الكبيرة، وكتب التاريخ مليئة بآثار الوباء²¹، وربما كان كتاب بذل

(13) الذهبي: العبر، ج2، ص 448.

14 السلوك لمعرفة دول الملوك، ج4، ص 80

15 النجوم الزاهرة ج10 ص 155-

16 ابن قاضي شهبة(ت851/1448م)، تاريخ ابن قاضي شهبة ج1 مج 2، ص 541.

17 بذل الماعون في فضل الطاعون ص 368.

(18) الحنبلي: شذرات، ج6، ص 458، في أحداث 749هـ/1348م.

19 ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ج1، القسم الاول ص 528.

(20) STEPHANE BARRY. NORBERT GUALDE : La Peste noire dans l'Occident chrétien

et musulman, 1347-1353, Bulltin canadien d'histoire de la medecine, vol 25 :2 2008 / p461-498.

انظر كذلك، ول ديورانت: قصة الحضارة، ج1، ص 7.

21 انظر كتاب، حمزة بن الحسن الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الارض، ص 145، 147، وتحدث الاصبهاني عما حدث في عصره في اصبهان سنة323هـ حيث بلغ عدد الموتى بالوباء باصبهان وحدها أكثر من مائتي الف (200000) ص 149. كما تحدث ابن عذاري في البيان تحقيق بشار عواد معروف، ج1، ص 280، على ما حدث من شدة ثم وباء في افريقية في أحداث عام 395هـ وهو نص يقترب من نص ابن خلدون. وانظر كذلك طاعون سنة 449هـ الذي قضى فيه في ما وراء النهر ثم انتقل إلى فارس وأذربيجان والعراق و بلغ في ما وراء النهر 1.65 مليون نفس، ابن الجوزي: المنتظم ج16، ص 16-18. وعن سنة 478هـ في ابن الجوزي: المنتظم ج16، ص 240 هام جدا عن الاعراض التي تظهر على المرضى والامراض التي جاءت بعده واطباء المارستان ومراعاة جميع المرضى. وعن سنة وباء سنة 595هـ انظر، عبد اللطيف البغدادي: الافادة والاعتبار المقالة الثانية الفصل الثاني حوادث سنة 595هـ في مصر، ص 132-146. هام جدا للمبالغات والوقائع التي ارتكبت وأذهل المؤلف ذاته.

الماعون في فضل الطاعون لابن حجر العسقلاني يعطي صورة كرونولوجية على الاوبئة التي انتابت بلاد المشرق، غير انها لم تكن عامة كوباء 749هـ.

كما أن العالم تعرض لكثير من الجوائح الاخرى التي لا تقل فداحة عن الطواعين كالجفاف والجوع وكذا الحروب التي لا تنتهي وكانت لهذه الاخيرة آثار كبيرة ومدمرة على النفس البشرية فتزهق فيها أرواح مئات الالف من البشر في أيام معدودة وليست في أشهر وربما كانت أكثر قسوة من الوباء العام في قتل الانسان وتدمير معالم الحضار، ولكنه لم يشعر العالم كله أنه مهدد بالانقراض كما هدد في زمن الوباء العام الذي أشعر العالم كله بقرب نهايته.

ثالثا: مناقشة ابن خلدون حول آثار الوباء:

قبل البت في مناقشة ابن خلدون يجب التأكيد بأن ابن خلدون عقلية علمية من طراز فريد لا يمكن أن يחדش في علمه او جهده الكبير الذي حول بمقدمته مسار الدراسات التاريخية في العالم الاسلامي والغربي على السواء نحو دراسة الظواهر التاريخية كما أكد ذلك هرنشو في كتابه " علم التاريخ بقوله: " نجد شيخ مؤرخي العرب عبد الرحمن بن خلدون التونسي قد كتب فيما كتب مقدمة لتاريخ عام بلغت من سعة الاحاطة ، وصحة النظر ، وعمق الفلسفة ، ما جعلها مصداقا لما قال الاستاذ فلنت Flint (1838-1910 م)²² في حق ذلك العالم التونسي الكبير من "أنه واضع علم التاريخ، انتقل أثر هذه الثقافة العربية إلى أوروبا النصرانية من طريق مدارس الاندلس وجنوب إيطاليا " ص 47-52. " ولكن ذلك لا يمنعنا من مناقشة ابن خلدون كما يدعو هو في مقدمته إلى التحقيق في ذلك وفقا لعلم العمران البشري والاحداث التاريخية التي صاغت المنطقة.

أمّا أن الوباء قد كانت له آثار حقيقية على الساكنة من حيث عدد الوفيات، في مختلف الامصار فهذا مما لايجادل فيه إنسان، مع ما رافق ذلك من خوف وهلع بين الناس الذين كان البعض منهم يموت رعبا كما صرح بذلك الطبيب الاندلسي ابن خاتمة(ت 771هـ) المعاصر للوباء، وهذا الهلع الذي دخل اعماق الناس وهم يرو البشر يتساقط أمامهم ويسيرون في مواكب لا تنتهي من الجنازات لمدة قاربت السنة كاملة على اختلاف شدة الوباء بين مكان وآخر وبين موسم وآخر قد جعل الموت أقرب لاي كان وفي أي وقت، وكل ذلك كان له وقع كبير حتى أن الناس اعتقد بعضهم بأن القيامة قد حلت.

ونحاول مناقشة النص من خلال ثلاث مقاربات:

1-المقاربة الإحصائية:

²² Flint (1838-1910 م) فيلسوف وعالم باللاهوت انجليزي كتب عدة كتب في الدين والفلسفة اهمها تاريخ فلسفة التاريخ))

وإذا عدنا إلى الوقائع التاريخية على **مستوى الإحصائيات** فإن التقديرات التي سجلتها كتب التاريخ من الدواوين في مصر أو الأندلس أو تلمسان أو تونس وبعملية حسابية ولمدة عام لا يمكن أن تكون عدد الوفيات قد وصلت إلى أي نسبة مهددة للجنس البشري، وقد رأينا أنه في مصر وهي البلدة التي كان الوباء شديد الوقع عليها سجلت إحصائيات متباينة حسب الأيام والشهور، واحصيت الوفيات التي صلي عليها بالمصليات (دون من مات في الاسواق وعلى الدكاكين) في القاهرة في يومين فبلغت 13800 ثلاثة عشر الف وثمانمائة نفس، وفي أقصى إحصائيات للوفيات في شهري شعبان ورمضان (حيث كان الوباء في اعنى شدته) من سنة 749 هـ كانت 900 ألف إنسان²³ أي بمعدل 15000 وفاة يوميا²⁴، أما في الشهور الأخرى كانت الوفيات تتراوح بين 200 إلى 1200 يوميا أي أقل من 36 الف وفاة شهريا أي أن الوفيات كلها لا تتعدى حسب الإحصائيات 1.2 مليون إنسان، في كل فترة الوباء، وهذا الرقم على اعتبار صحته رغم ما يكون فيه من المبالغات التي تحدث عنها ابن قاضي شهبة²⁵ لا يشكل في مجموع مصر إلا نسبة ضئيلة للقرائن التي سنسوقها بعد قليل. ولأن حركة المجتمع بقيت تسير عند المؤرخين بنفس الوتيرة حتى ما ذكره ابن خلدون ذاته في كتاب العبر وهو يؤرخ للمغرب والمشرق.

- وفي الإسكندرية سجلت 1080 الف وثمانين وفاة في اليوم بعد أن تراجع الوباء قليلا²⁶.

-أما حلب فكان يموت بها 500 نفس يوميا.

-وبمدينة غزة أحصيت رسميا عدد الوفيات من 2 محرم إلى 4 صفر (شهر ويومين) أكثر من 22 الف إنسان في الذروة أي بمعدل 688 وفاة يوميا . وذكر ابن بطوطة الذي كان حينها في حلب بأنه في أوائل شهر ربيع الأول انتهى عدد الموتى بها (غزة) أزيد من ألف²⁷ وأنه عندما وصلها أخبره قاضيها بأن عدد الموتى بلغ 1100 الف ومائة في يوم واحد²⁸.

²³ المقريري: السلوك ج4، ص انظر كذلك إحصائية أوردها ابن ابي حجلة التلمساني في كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون ص 380.

²⁴ في بعض الإحصائيات وصل عدد الوفيات في القاهرة 20000 عشرون ألفا ، وذكر ابن بطوطة أن العدد في الذروة وصل إلى 21000 واحد وعشرين ألفا، ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق عبد الهادي التازي، ج4، ص 181. انظر إحصائيات ابن قاضي شهبة في تاريخه ج1، مج2، ص 543 وانظر خاصة ص 551.

²⁵ بعد ان اورد الاعداد البيت ذكرها كل من الكتبي وابن كثير وراآ الفارق الكبير بينها للشام وحدها وبعد أن رجح العدد الذي ذكره ابن كثير قال: "وما زال الناس يزيدون ويبالغون في عدد الموتى أيام الطاعوم كما شاهدناه في زماننا"، انظر ، تاريخ ابن قاضي شهبة (ت851ه) ج1 مج2 ص 549.

²⁶ ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق عبد الهادي التازي، ج4، ص 181.

²⁷ ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق عبد الهادي التازي، ج4، ص 179. في رحلة العودة من الصين.

²⁸ ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق عبد الهادي التازي، ج4، ص 180.

- وفي مدينة حمص ذكر ابن بطوطة في ربيع الاول ان عدد الوفيات يوم نزوله بها كان قرابة 300 وفاة²⁹.

-وفي مدينة دمشق التي كانت أقلهم وباء ولكن الوباء اشتد بها في بعض الوقت حتى كان عدد الموتى في اليوم بين 1000 الف³⁰ و 1200 الف ومائتي، إلى 2400 ألفين وأربع مائة³¹ يومياً³².

-أما إذا انتقلنا إلى الاندلس فينقل إلينا الطبيب ابن خاتمة(ت 771هـ/1369م)³³ كيف انتقل الوباء حتى وصل إلى مدينته **المرية** وذلك بأنه حل بالمرية في أول شهر ربيع الاول سنة 749هـ/ اول شهر يونيو 1347م واستمر صيفا وخريفا وشتاء إلى منتصف ذي القعدة / اوائل شهر فبراير 1348م لحظة كتابة الكتاب، ولايزال .

ولا حظ أنه كان يتزايد تزييدا خفيفا حتى شهر سبتمبر ثم اشتد بعد ذلك تدريجيا إلى شهر فبراير، ثم ذكر أن هذا التدرج كان عاملا نفسيا للتكيف مع الوباء وذكر بأن بلدانا أخرى تعرضت لشدته منذ اللحظات الاولى فهلك الناس بالربيع، وأكد أن أقصى وفياته اليومية في مدينته المرية إلى شهر فبراير لم تتعد 70 سبعين وفاة في اليوم.

وفي معرض تخفيف الوطأة على الناس وان مدينته قليلة الاصابات قارن بما وصله من إحصائيات موثقة فذكر أن عدد الوفيات اليومية مما أورده الثقات في أزمنة الذروة هي : بتونس كان 1200 نسمة. وبتلمسان 700 وفاة ا. وبلنسية 1500 وفاة. وجزيرة ميورقة 1250 ، وكذا الحال في غيرها من البلدان الاسلامية او النصرانية.

كما تسجل المصادر بأن مدينة غرناطة لم يصلها الوباء .

كما كتب القاضي النباهي في كتابه تاريخ قضاة الأندلس³⁴، عن آثار هذا الوباء البشرية: " وقد شاهدنا منه غرائب يقصر اللسان عن بيان جملة أجزائها، ومنها انتهى عدد الأموات في تلك الملحمة

²⁹ ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق عبد الهادي النازي، ج4، ص 179.

³⁰ ابن حجر(852هـ) : بذل الماعون في فضل الطاعون، ص 382.

³¹ ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق عبد الهادي النازي، ج4، ص 179.

³² انظر تاريخ ابن قاضي شهبة ج1 مج2 ص 545-546، نقلا عن ابن كثير.

³³ وابن خاتمة من أشهر الأطباء الذين تناولوا هذا الوباء بالبحث، والمتابعة، والتسجيل، والمراقبة بعد وباء 749هـ/ 1348م الطبيب الأندلسي أحمد بن علي بن محمد ابن خاتمة(ت 771هـ/1369م)⁽³³⁾، معتمدا على منهج علمي في مراقبة المرض، وأسبابه، ونوعه، ومصدره، وعلاماته الأولى، وأعراضه، وسجل كل ذلك في رسالة له بعنوان "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، ذلك أنه كان يُسعف المرضى والمصابين، ويدون بكل اهتمام وعناية كيفية انتشاره وانتقاله، ويذكر فيه عدد الوفيات في مناطق كالمرية وتلمسان وتونس

³⁴ تاريخ قضاة الاندلس، ص 166.

الوبائية بمالقة إلى ما يزيد في اليوم على الألف (1000 وفاة)، بقي بعد ذلك أشهراً حتى خلت الدور، وعمرت القبور، وخرج أكثر الفقهاء والفضلاء".

وفي أوروبا أطلقوا عليه اسم "الموت الأسود"، ومات فيه حسب التقديرا ما يزيد عن 25 مليوناً في مجموع أوروبا حتى كانت السفن تسير في الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وليس فيها حي³⁵. كما فسدت المزروعات التي لم تجد من يتولاها،.

وتذهب بعض الدراسات الغربية إلى أن عدد السكان الذين قضوا في هذا الوباء حوالي ثلث سكان المعمور³⁶.

هذه الإحصائيات مهما قيل فيها فإنها لا تصل إلى درجة ماكتبه ابن خلدون الذي لم يشر إلى أية إحصائيات ديوانية.

وفي العصر الحديث تعرضت اسبانيا إلى الوباء الذي ذهب بأربعين مليوناً من الأنفس، ولم تنقرض دولة اسبانيا ولا شعبها، وتعافت من نكبتها واسترجعت عافيتها وكذلك تعرض أوروبا إلى حربين عالميتين، ورغم فداحة خسائرها البشرية والمادية التي تقدر بأكثر من عشرين مليوناً التي كانت أشد من الوباء، كانت لها آثار إيجابية كبيرة على العلوم الأدبية والفلسفية والتطور العلمي والتكنولوجي.

2- المقارنة الثانية : نشاط الدول

وللتأكيد على أن الوباء لم يؤثر في القوى الأساسية للمجتمع ولم يتوقف نشاط الدول والقبائل على خلاف ما جاء في نص ابن خلدون نورد الامثلة التالية: ولن نذهب بعيداً عن البيئة الأساسية التي استقى منها رؤيته

- يجب التذكير بأنه وعلى بُعد أقل من 8 سنوات من الوباء أي سنة 758هـ جهز السلطان أبو عنان المريني جيشاً كبيراً (أي لم تكن هناك إبادة للبشر ولم تنقرض الدول) بعد أن وزع أموالاً ضخمة

³⁵ انظر، الفيلاي عبد الكريم: التاريخ السياسي للمغرب الكبير، ج3، ص 177-178

³⁶ انظر، دومينيك فاليرين: بجاية ميناء مغاربي، ترجمة علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة

العربية، 1436هـ/2014م، ج1، ص 101-102.

STEPHANE BARRY. NORBERT GUALDE : La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman, 1347-1353, Bulltin canadien d'histoire de la medecine, vol 25 :2 2008 , p466.

واتجه به إلى قسنطينة والزاب وحاول الوصول إلى افريقية تونس واستطاع ان يحقق فتوحا في بجاية وميلة وقسنطينة والزاب وعنابة وافريقية (تونس).

وفي صحراى بلاد الزاب الحارقة تعرض جيشه على يد الأعراب الى حرب شعواء، وفقد فيها عددا كبيرا من رجاله ومرتزفته وسلاحه وكانت وبالا على الجيش المريني، ودب الضجر والكلل والملل الى نفوس جيشه.

ولكنه في هذه الظروف المتضجرة في الجنود وإصرار أبي عنان على ملاحقة الأعراب اكتشف مؤامرة حيكّت عليه من قبَل أحد قواده ووزرائه ابن ودرار فرجع مسرعا الى فاس خوفا على عرشه ثم تمت تصفية كل من كان محل شبهة واتهام.

- ويهمنا في ذلك وقبله أنه أرسل قبل 758 هـ قائده الشيخ ابو عمران لاختماد الثورة والعصيان التي قامت بها مدن ميلة وبجاية فانهزم في ميلة ونجح في بجاية والتي كانتا السبب في قيام ابي عنان بهذه الرحلة التأديبية الى الشرق. وتم له طاعة بجاية ودخولها رسميا. اما العدة التي استخدمت فكانت متوفرة جدا والجيوش .

-وعلى اثر مقتل أبي عنان سنة 759 هـ بدأت تبشير الدولة الزيانية

- إن الدولة الزيانية بعد 10 عشر سنين فقط من الوباء أي سنة 760 هـ استعاد الزيانيون دولتهم وعاصمتهم تلمسان وكانت في عز أيامها على عهد باعثها أبي حمو الثاني ولمدة ثلاثين سنة.

وفي سنة 761 هـ تأسست في تلمسان أعظم مدرسة علمية وهي اليعقوبية التي كان على رأسها أحد أقطاب الحركة العلمية في المغرب الإسلامي والأندلس الشريف التلمساني (771هـ/1369م) الذي كان لسان الدين ابن الخطيب كلما ألف مؤلفا بعثه اليه وعرضه عليه وطلب أن يكتب عليه بخطه³⁷. وكانت بين تلمسان الزيانية وبين الجارتين المرينية والحفصية في حياة ابن خلدون صراعات وحروب لا تكاد تنتهي.

-أما في المشرق فإن مصر كانت تحت حكم المماليك وقد وصف ابن خلدون "القاهرة" سنة 784 هـ (أي بعد 34 سنة من الوباء) التي أخذته تلك المدينة الساحرة بكل ما فيها من مظاهر الحضارة والعمران، وصفا رائعا بقوله: " فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، (التعريف ص 649) " كناية عن الكثافة السكانية التي شاهدها ابن خلدون في مصر ما يؤكد المبالغة الكبيرة في تقدير عدد الموتى ونتائج الوباء البشرية والحضارية.

³⁷ ابن مريم البستان ص 175 المقري: نفح الطيب 25/6. التنبكتي: نيل ص 438.

-وفي سنة 750 هـ تعرض ابن كثير وابن قضي شهبة وغيرها إلى النشاط العسكري والعلمي والاحتماعي الذي لم تتوقف فيه حركة البشر مما يؤكد رغم ماكان من الموت ان الحياة لاتزال قائمة ولم يحدث هناك فناء تام فقد خرج جيش من الشام به ثلاثة آلاف فارس لقتال الارمن³⁸

- وتعرضت حلب ودمشق إلى هجومات جيش التتر بقيادة تيمولنك وقد شارك ابن خلدون في مفاوضات الصلح سنة 803 هـ .

أي ان الدول التي تحدث عنها ابن خلدون بأنها كانت إلى الزوال لم يكن ذلك في واقع الحال بل لملت نفسها بعد الوباء واستعادت عافيتها وقواها وبقي الرصيد القديم هو الذي يلعب الدور الاساس في سيرها نحو القوة او الضعف.

وقد رأينا بعد قرابة قرن من الوباء كيف استطاع المسلمون من فتح القسطنطينية 857هـ/ 1453، وبعدها بخمسين سنة كيف فقد المسلمون ما تبقى من الاندلس سنة 897/ 1492م، وكلا الحادثين كانتا متوقعتين قبل حدوث الوباء بأكثر من قرن، ولا علاقة ذلك بالأوبئة او الوباء الذي مس معظم مناطق العالم.

3- المقاربة الثالثة : الحياة الخاصة لابن خلدون

الانطباع الذي كتبه ابن خلدون عن الوباء يشعر بأن الحياة توقفت وأن الدول انهارت، وأن لاشيء يتحرك بينما في مساره العلمي والسياسي والوظيفي نجد حركة مكثفة مفعمة بالنشاط إن على المستوى السياسي للدول او القبائل او العلوم .فقد سار ابن خلدون في أربع مراحل أساسية، ففي البلدان المغربية عاش فيه ابن خلدون طالب علم ورجل سياسة، وفي المشرق مدرسا وقاضيا .:

المرحلة الاولى: مرحلة النشأة والتلمذ بين سنتي (732-751هـ) حوالي 20 سنة وكانت كلها في مدينة تونس مسقط رأسه، منها 15 سنة في الدراسة والتحصيل العلمي.

المرحلة الثانية:(المتزامنة مع الوباء) مرحلة الوظائف السياسية والديوانية (اواخر 751- أواخر 776هـ) استهلكت هذه الوظائف حوالي 25 سنة(ربع قرن) من حياته، وكان فيها منتقلا في الوظائف بين بلدان المغرب الأدنى (تونس) والأقصى (فاس)، والاندلس (غرناطة). والأوسط (بجاية التي تقلد فيها منصب الحجابة سنة 766هـ وكاد يقتل، وتلمسان) وتقلب فيها بين العز والسجن.

ثم توجه في رحلة انتقالية لهارب من فاس نحو تلمسان عبر الاندلس.

المرحلة الثالثة: مرحلة التفرغ للتأليف وتمتد بين سنتي (أواخر 776- أواخر 784هـ) ولم تكن.

³⁸ ابن قاضي شهبة ص 662.

أي حوالي ثمان سنين قضى اربع سنوات الاولى في قلعة بني سلامة بفرنندة ولاية تيارت، والأربع سنوات الثانية قضاها في تونس، وقد تفرغ في هذه الفترة تفرغا كاملا لتأليف كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر، وبه المقدمة في جزء واحد حيث استغرق في كتابتها حوالي خمسة أشهر.

المرحلة الرابعة: مرحلة وظائف التدريس والقضاء بين (أواخر 784- أواخر 808هـ) حوالي 25 سنة (ربع قرن) قضاها في مصر بين القضاء والتدريس.

ولقد لقي "ابن خلدون" الحفاوة والتكريم من أهل "القاهرة" وعلمائها، والتف حوله طلاب العلم ينهلون من علمه. ودرس بها على لفيف من الطلبة وقد تلقى عنه عدد كبير من الاعلام منهم المقريزي وابن حجر ولقي "ابن خلدون" تقدير واحترام "الظاهر برقوق" . سلطان "مصر" . الذي عينه لتدريس الفقه المالكي بمدرسة القمحية، كما ولاءه **منصب قاضي قضاة المالكية**، وخلق عليه ولقبه "ولي الدين" سنة 786هـ. و

وكان ضمن الوفد المفاوض مع **تيمورلنك**

وفي كل مساره الذي دبجه في سيرته او التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا الذي كتبه بعد 803هـ ولم نشعر بأنه كان يتلمس آثار هذا الوباء الذي تحيف الاجيال كما قال عنه قبل ثلاثين سنة بل إن الذي يتابعه في "التعريف" لا يكاد يجد حديثا عن أثر الوباء إلا في حديثه عن بعض مشايخه وبعض العلماء الذين ترجم لهم أو ذكّر بهم وبخلالهم بأنهم قضوا فيه، ولكنه لم يتحدث عن الآثار التي كتبتها في المقدمة.

ولم نشعر بأن الدول زالت أو بادت وهو يسير في كنفها ويقيم بين جمهورها.

إننا نقدر تلك الصدمة النفسية التي تعرض لها ابن خلدون الذي نجاه الله من هول هذا الوباء وهو شاب يافع، فكانت هذه الكلمات تعبيراً عن عمق التأثر، والمشاعر التي انتابته وهو يشاهد فناء الناس أمامه؛ ومن ثم فإن هذه النتيجة لا يمكن الاطمئنان إليها في السياق التاريخي العام لهذا الوباء، لأننا رأينا أن المغرب الإسلامي كغيره من شعوب العالم تعرض للوباء عديد من المرات، ورغم ذلك فإن كلا من فاس (كانت رحلة ابن قنفذ القسنطيني نحو تلمسان ثم فاس سنة 759هـ) وتلمسان مثلا كانت بعد هذا الوباء قبلة العلم في بلاد الغرب الإسلامي، واستمرت ريادتها إلى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وأرخ لها ابن خلدون بعد الوباء بما يجعلها في مصاف الحواضر العلمية الكبيرة، بل إن الإنتاج العلمي بها في القرن التاسع الهجري يفوق القرن السابع والثامن.

والمشرق الإسلامي ذاته تعرض لنفس الوباء، ولكن ابن خلدون يؤكد بأنه "على ثبج من العلوم

العقلية" (ص 533).

وأوروبا ذاتها طالها هذا الوباء، ولكنها ما لبثت أن تجاوزته إيجابيا، وأكد ذلك ابن خلدون ذاته بقوله في بأن العلوم الفلسفية بها: "نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة، ودواوينها جامعة، وحماتها متوفرون، وطلبتها متكثرون"³⁹.

رابعا: تقييم النتائج الخلدونية:

السؤال المطروح:

على أي أساس أقام ابن خلدون طرحه حول نتائج الوباء في المغرب والمشرق؟ هل كانت مشاهدات حقيقية أم انطباعات شخصية؟ أم توقعات مستقبلية؟ هل كانت نفسيته الكئيبة وراء هذا النظرة السوداوية؟ أو أن المسار العام للتراجع الحضاري العام للمغرب تداخل عند ابن خلدون مع الوباء ثم ألبسه لباس الوباء.

1- تراجع العالم الإسلامي سابق للوباء.

المعلوم أن الحالة العامة للمسلمين كانت قبل حوالي قرن من الوباء تسير نحو التراجع السياسي والحضاري عموما.

ففي الجناح الغربي من العالم الإسلامي سقطت عاصمة الأندلس قرطبة سنة 633هـ/1236م على يد ملك قشتالة فرناندو الثالث ثم العاصمة الأندلسية الثانية اشبيلية سنة 646هـ على يديه كذلك وتداعت بقية المدن سوى مدينة غرناطة ومحيطها، حيث تأسست الدولة النصرانية التي ساهمت بذلة في اسقاط اشبيلية.

ثم سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين سنة 668هـ/ (من نتائج هزيمة العقاب). وانقسام المغرب إلى ثلاث دول المرينية والزيرية والحفصية التي باتت الفوض بينها سيدة الموقف حتى نهايتها جميعها.

وفي المشرق انهكته الحروب الصليبية (489هـ - 690هـ / 1096م-1291م)، ثم ظهر التتار وعلى رأسهم جنكيز خان سنة 616هـ وتقدموا إلى أن تم سقوط بغداد سنة 656هـ على أيديهم وعاثوا في الارض فسادا وقد أسهب المؤرخون في ذكر المذابح التي تعرض لها المسلمون⁴⁰، فعندما دخلوا مدينة مرو قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف رجل⁴¹، أما عندما غزا هولوكو بغداد استباحوها قتلا

³⁹ المقدمة ص 533 .

⁴⁰ ابن الاثير: الكامل في التاريخ احداث 616هـ وما بعدها.. السبكي: طبقات الشافعية ج1ن ص 338- 342 وج 8 ص 268

هام حول هولوكو..

⁴¹السبكي: طبقات الشافعية ج1ن ص 339.

بضعة وثلاثين يوماً ولم ينج إلا من اختفى، وقد أحصي من قتل في بغداد فكان ألفاً وثمانمائة ألف 1.8 مليون نفس غير من لم يعد ومن غرق⁴². وهذه الأحداث أحدثت دويًا هائلًا في العالم الإسلامي وأسهمت في تردي الذهنية الإسلامية التي شعرت لأول مرة بأنها عاجزة عن توفير الأمن لبلدانها في الجناحين.

وللأسف الشديد لم يكن الوباء هو الذي أسقط الدول بل سقوطها كان بسبب الخلافات وفساد ذات البين والتشطي وتفرق المسلمين والخيانة والخذلان والخلافات الشخصية التافهة، والصراع على الحكم، وترك الوحدة وإيثار الاستقلال الذاتي من أجل البقاء في الحكم على حساب الانضواء تحت مظلة المسلمين العامة. وهي لعمرى الضريبة التي تدفعها الشعوب والأوطان معا في كل الأزمان.

2- أثر المدرسة المشرقية في ابن خلدون.

هل أثرت المدرسة التاريخية المصرية في رؤية ابن خلدون وهو في سن 67 من خلال تبنيه لما شاع في مصر من كتابات ومبالغات حول ما فعله الوباء من آثار وتغيرات على مستوى الساكنة وعلى مدى قصير، وبالرجوع إلى أحد أهم تلاميذ ابن خلدون في مصر وهو المقرئ (ت 845هـ) في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك وفي ج 4 حول أحداث سنة 748-749هـ نجده يصف ما تعرض له العام وخاصة مشرق الإسلامي من آثار الوباء بشكل يوحي بأنه لم يتبق أنسان أو حيوان على وجه الأرض وخلت الدور من الساكنة وبقيت مقفرة، ويشعر القارئ بأن كتابه (السلوك في معرفة دول الملوك) سيتوقف عن التأريخ على الأقل لمدة 30 سنة حتى تثمر البشرية من جديد وتبعث من جديد، ولكنه في أحداث سنة 750 في المشرق يبقى المقرئ على نفس الوتيرة في التأريخ لدولة المماليك وغيرها من الدول، ثم يتحدث عن الحروب والأزمات، ولا نلاحظ في تاريخه إلا شيئًا يسيرًا أو نادرًا مما يمكن أن يكون أثرًا من آثار الوباء، فهل كان الانطباع الذي وجدته ابن خلدون من المؤلفات التي أرخت للوباء والتي اعتمدها المقرئ قد أغراه بالحديث عن نتائجه بهذا الشكل؟.

خاصة وهو يقول في مقدمة النص محل الدراسة: "وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة "

إن ابن خلدون يتحدث في هذا النص بالذات بأنه كتبه في آخر المائة الثامنة، وإذا علمنا أن المقدمة كتبها بين سنة 776 و779هـ في قلعة بني سلامة في ظرف خمسة أشهر قبل التنقيح⁴³ ثم نقحها التنقيح الأول في تونس سنة 784هـ ولكنه عندما كان في مصر نقحها التنقيح الأخير الذي كان

⁴² السبكي: طبقات الشافعية ج 8 ص 339. انظر كذلك كتاب هولكو إلى أهل دمشق قبل سقوطها.

⁴³ (استقر في القلعة منذ سنة 776هـ وتفرغ للكتابة في ظل التوتر الذي كان بينه وبين فاس وتلمسان حيث كان أخوه يحيى مفتاح وجوده في قلعة بني سلامة (بعد مقتل صديقه لسان الدين بن الخطيب))

في حدود سنة 799هـ⁴⁴، واشتهرت بالنسخة الفارسية وهي تلك التي أهداها ابن خلدون حوالي - بعد أن أتم تنقيحها في مصر وأضاف إليها زيادات كثيرة - إلى السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز (الملقب بالمستنصر بالله) (796-799هـ) وحفظت في خزانة جامع القرويين بفاس؛

إن هذا النص على الأرجح بأنه كتبه في مصر سنة 799هـ وأنه تأثر بالمدرسة المصرية التي طالع مصادرها عند كتابة كتابه العبر.

-المدرسة المشرقية ألقت بظلالها على تفكير ابن خلدون فيما قرأه عن ما كتبه المعاصرون للوباء من كبار العلماء مثل الصفدي⁴⁵ (ت 764هـ) والسبكي (ت 771هـ) وابن كثير (ت 774هـ) الذي كان يصف أحداث الوباء يوماً بيوم⁴⁶، وبابن أبي حجلة التلمساني (725-776هـ / 1325-1375م)⁽⁴⁷⁾ الذي ألف كتابه "الطب المسنون في دفع الطاعون"⁽⁴⁸⁾ وغيرهما عن الوباء.

وكمثال على ذلك نورد ما كتبه السبكي (ت 771هـ) عن الطاعون العام فيقول⁴⁹: "لما غمَّ الطاعون على النفوس وعمَّ، وهمَّ بالردى فأودع القلوب همَّ، طاف البلاد فما ترك طارفة ولا تليدة، وطاف في الرُّبع العامر فأذن بالخراب، وما تلك الصفة بحميدة، وغزا الاقليم المصري منه ما شيبَّ النواصي، وشغلهم بأنفسهم عن القيام بالطاعات بل وبالمعاصي، ودخل منه الشام رعب يروِّع ولا يراعي، فبطلت عنده الشهوات، وذهبت لديه الدواعي... إلى غير ذلك من تخريب الممالك، وتضييق المسالك، وتوسيع أبواب المهالك "

وحتى المدرسة الاندلسية ربما كان لها أثرها فيما كتبه ابن خلدون في هذا النص فقد كتب القاضي النباهي المالقي في كتابه تاريخ قضاة الأندلس (ولد 713 هـ - اواخر القرن الثامن) : " وقد شاهدنا منه غرائب يقصر اللسان عن بيان جملة أجزائها، ومنها انتهى عدد الأموات في تلك الملحمة

⁴⁴ ابن خلدون: المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج1، ص 113-114.

⁴⁵ الصفدي هو خليل بن ايبك بن عبد الله الالبكي الغازي كان والده عز الدين ايبك من أمراء المماليك في صفد وفيها ولد ابنه خليل سنة 696هـ انظر الدرر الكامنة 87/2. ولي كتابة الدرج بصفد ثم بالقاهرة، ثم ولي كتابة بيت المال في دمشق، وكتابة الانشاء بها وبالديار المصرية، ثم ولي كتابة السر بحلب توفي بالطاعون سنة 764هـ.

⁴⁶ البداية والنهاية ، ج 14 ص 225- 230 .

⁽⁴⁷⁾ المقرئبي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج4، ص 381. السيوطي: حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ج1، ص466. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج1، ص 329 ترجمة 826. ابن رجب الحنبلي: شذرات الذهب، ج6، ص240-241. جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج3، ص 3، ص 219-221. نويهض: معجم، ص47.

⁽⁴⁸⁾ قال عنه جرجي زيدان بأنه موجود في دار الكتب المصرية، انظر، تاريخ آداب اللغة العربية، ج3، ص 3، ص 221.

⁴⁹ بذل الماعون في فضل الطاعون: ص 383.

الوبائية بمالقة إلى ما يزيد في اليوم على الألف (1000 وفاة)، بقي بعد ذلك أشهراً حتى خلت الدور، وعمرت القبور، وخرج أكثر الفقهاء والفضلاء⁵⁰.

الخاتمة:

باعتبار أن ابن خلدون ابن بيئته ويتأثر بها كما يؤثر فيها فإن ما جاء به ابن خلدون في هذا النص يأتي في إطار:

- اعتماده على ثقافة المجتمع والبيئة التي عاشها ونظرتها الى الوباء وما ترسخ فيها من انطباعات في المغرب أو في مصر حول الموجات الأولى أو الحادة للوباء وما يعقبها من رعب وهلع، وهي قراءة ظرفية حاول ان يصبغ بها حاضر المنطقة ومستقبلها.

- تأثره بحالته النفسية⁵¹ التي كان يعانيها من وفاة والديه سنة 749هـ بالوباء وهو في الثامنة عشر من عمره، في مرحلة المراهقة ووفاة مجموعة من شيوخه الذين تتلمذ عليهم في تونس، ونظراً لهول الصدمة فقد ذكر بأن جميع المشيخة قد قضاوا في هذا الوباء رغم أن ثمة من لم يصبه الوباء كالآبلي (681هـ- 757هـ) مثلاً الذي بقي بتونس يدرسه لمدة ثلاث سنين حتى استدعي من قبل السلطان أبي عنان⁵²، ومن ثم كانت هذه الصدمة عميقة وصار يشعر فيها بأن العالم كله تعرض لدمار كبير، وبقيت راسخة في نفسه إلى آخر حياته.

أما فيما يتعلق بالوباء فإن ما حاول أن يبيّنه من تغيير معالم الحضارة فإنه لا يمكن رؤية آثاره بالسرعة التي تحدث عنها ابن خلدون، ذلك أن التحولات الحضارية لا يمكن ملاحظتها في زمن يسير 30 سنة.

- كما يمكن أن ندرج بعض استنتاجات ابن خلدون ضمن التأريخ العاطفي والوجداني أكثر منه تأريخاً حضارياً.

ويبدو من الضروري التنبية إلى أن الوباء الجارف كان صدمة عالمية أو تحد للبشرية، نظراً لشدته ومدته ومآسيه كما هي حالة العالم اليوم. وهذا التحدي يجعل الإنسان في مواجهة حاسمة، ومن

⁵⁰ تاريخ قضاة الاندلس، ص 166.

⁵¹ حول الحالة النفسية للطاعون ، كتب الصفدي في رسالته انظر بذل الماعون ص 382-383..

⁵² ابن خلدون: العبر، ج7، ص 532. في رحلته عندما وصل إلى بيت المقدس في رحلة الرجوع من الصين يذكر ابن بطوطة بأن أشياخ القدس قد انتقلوا إلى رحمة الله جميعهم ولم يبق منهم إلا القليل. ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق عبد الهادي التازي، ج4، ص 180. وقال عن مشايخ مدينة القاهرة الذين تعرف عليهم في رحلته ذهاباً قد قضاوا رحمهم الله جميعاً عندما حل بها في رحلة العودة ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق عبد الهادي التازي، ج4، ص 181..

أوجه الاستجابة لهذا التحدي ومن منطلق الدفاع عن الحياة المهددة انبرى بعض الأطباء في دراسة الوباء، والبحث عن طرق الوقاية منه، ومعالجته بالمتاح من الأدوية، وقد صنفت في ذلك مؤلفات ورسائل من معاصري ابن خلدون وأصدقائه.

ومن الملاحظات أن صدمة الوباء في عالم اليوم(كوفيد 19) لا تختلف عنها في زمن الوباء العام، إنها صدمة أحدثت في العالم كله شعورا بضرورة التفكير الجدي في إعادة صياغة المنظومات الصحية والاقتصادية وتأهيلها وفقا لما كشفته نتائج الوباء، ومن أهم ايجابيات الوباء تنبيه الانسان والمؤسسات وفتح اعينها على نوافذ لم تكن في الحسبان وتحسين مستقبلها من كل الأزمات، وسوف يتبلور بجدية اكبر ما يمكن تسميته باقتصاد الازمات الوبائية أو منظومة الصحة للازمات الوبائية التي تختلف كليا عن ازمات الحروب وهذا ما لم يكن موجودا من قبل.